

تاريخ القبول: 2018/12/14

تاريخ الإرسال: 2018/12/04

## إشكالية نقل وزرع السوسيولوجيا في الوطن العربي The issue of spreading the sociology in the Arab World

د. ثياقة الصديق

قسم علم الاجتماع والديمغرافيا  
المركز الجامعي: أمين العقال الحاج موسى آق أخموك-لتامنغست  
seddiktiaga@gmail.com

فاتحي عبد النبي

قسم العلوم الاجتماعية

جامعة أحمد دراية - أدرار

[hadjouled@gmail.com](mailto:hadjouled@gmail.com)

مَلِكُ حَيْضِ الْبَحْثِ

يعتبر علم الاجتماع علم حديث النشأة مقارنة بالعلوم التجريبية والتقنية التي نشأت في أوروبا بل حتى مع العلوم الإنسانية الأخرى كالاقتصاد وعلم السكان. فقد جاء علم الاجتماع نتيجة التغيرات الجذرية التي عرفها المجتمع الأوربي جراء الثورة الصناعية، وبعد عقود من الزمن أصبح علم الاجتماع في أوروبا- بيئته الاصلية- علم معترف به وقائم بذاته، غير أن ظروف انتقاله ونشأته في البيئة العربية ليست هي الظروف التي أدت الى نشأته في بيئته الأصلية، فلا يزال علم الاجتماع في الوطن العربي، وبعد عقود من عملية النقل والزرع لا يزال علم الاجتماع في الوطن العربي قاصراً ويبحث عن مكانة له بين علومه.

نحاول في هذا الورقة البحثية، أن نتأمل هذا الأمر، أي طريقة انتقال علم الاجتماع إلى الوطن العربي على تاريخه الطويل، والأسباب الكامنة وراء قصوره الراهن.

الكلمات المفاحية: علم الاجتماع في الوطن العربي، نقل السوسيولوجيا، ظروف انتقاله إلى العرب.

### Abstract

talking about Arabic sociology or sociology in Arabic world requires to know about situations and circumstances that led to appearance in its first environment Europe, also we should take into consideration the causes that led to its shift to the Arabic world and its development since nearly a century . the first Arabic contact with western sociology was since Napoleon invasion to Egypt 1798 , this event represents a big impact on different levels in society .In fact imitating others had an effect on different sectors like economy, administration ,justice ,education , culture.....etc .

So through this short study, we trying to show how sociology science shifted to the Arabic world and what are the different obstacles which led to unsatisfactory results shown.



### مقدمة:

إن الحديث عن السوسيولوجية العربية أو علم الاجتماع في الوطن العربي يقتضي منا الإحاطة بالظروف والأوضاع التي توفرت لإنتاجه في بيئته الأصلية (أوربا) أولاً، ثم الظروف والأوضاع التي أدت إلى انتقاله إلى العالم العربي وطبيعة هذه الظروف والأوضاع، لمعرفة بشكل جيد أسباب تطوره في مهده الأول (الغرب)، وقصوره في عالمنا العربي منذ انتقاله وزرعه على ما يربو قرن من الزمان ويزيد. ذلك أن التعرف على السوسيولوجية الغربية كان مع بداية التعرف على الحضارة الغربية ومنجزاتها، والذي كان بدايته مع غزوة نابليون بونابارت لمصر سنة 1798، وما يمثل ذلك الحدث من تأثير حضاري على كافة الأصعدة الحياتية للمجتمع. وفي الحقيقة فإن تقليد الآخر قد مس جميع القطاعات من اقتصاد وإدارة وجيش وقضاء وتشريع وثقافة وتربية وعلوم، وربما كان اصطحاب نابليون بونابارت لأكثر 160 عالماً وباحثاً وما أنجزوه في مصر دور الدافع والحافز للتعرف على مختلف العلوم الأوروبية الحديثة

وممارستها، وتبع ذلك من بعثات محمد علي الطلابية يتقدمهم أمام البعثة رافع رفاعة الطهطاوي، وطه حسين وأحمد أمين وقاسم أمين وسمير أمين وغيرهم كثير، وذلك للتعرف على الحضارة الأوربية ومنجزاتها العلمية والتقنية المبهرة، وبالتالي تم التعرف بالنسبة لتلك البعثات الطلابية على العديد من المنجزات العلمية للحضارة الغربية في معظم المجالات العلمية ومنها علم الاجتماع.

وبالفعل تم تكوين رجيل من السوسيولوجيين العرب في الجامعات الغربية، وتبعه تشكلاً لرجيل ثاني تكون في الجامعات العربية وبذلك تكونت كوكبة من علماء الاجتماع العرب على مر عقود طويلة. غير أن بعد تلك العقود الطويلة من التجربة والتكوين- كما يقول المرحوم عالم الاجتماع الجزائري جمال الدين غريد- "لم تثمر على نتائج مقنعة، وفي مجالات حيوية عدة يظهر كل شيء باهتا وغير مستقر وقابل للتقهقر، لا شيء تجذر وتأصل في المجتمع العربي، لا الديمقراطية ولا التصنيع ولا علم الاجتماع"<sup>(1)</sup>.

نحاول في هذه الدراسة أن نتأمل هذا الأمر مركزين على مثال علم الاجتماع، وعلى طريقة انتقاله إلى العرب، على تاريخه الطويل والأسباب الكامنة وراء قصوره الراهن، وهذا هدفنا من هذا البحث، وتكمن أهميته في تتبع مسيرة علم الاجتماع في الوطن العربي منذ التعرف عليه ونشأته منذ عشرينات القرن الماضي وواقعه اليوم وعلاقته بمجتمعه، وما هو إلا نموذج من نماذج منتجات الحضارة الغربية التي تعرف عليها المجتمع العربي وزرعها في فضائه.

### 1- ظروف نشأة علم الاجتماع في العالم الغربي:

لقد نشأ علم الاجتماع في الغرب الحديث في خضم الحركة العلمية التي عرفها في مجالات علوم الطبيعة والفيزياء، إذ تميز ذلك العصر بالاكتشافات العلمية وتطبيق المنهج العلمي الحديث لتفسير الظواهر هذا من جهة، ومن جهة ثانية إن المجتمع الأوربي عرف ثورتين كبيرتين لم يعرفهما من قبل، هما الثورة الصناعية والثورة السياسية (الثورة البريطانية، الثورة الفرنسية)، وما نتج عنهما، فالثورة الصناعية هزته هزة عنيفة، وشكلت منعطفا تاريخيا حاسما. فقد كانت الثورة الصناعية والثورة

السياسية وما نتج عنهما من أحداث وتقلبات على كل المستويات فاتحة لعهد جديد وحضارة جديدة، فقد غيرت هاتان الثورتان المجتمعات الأوروبية تغيرات عنيفة ومنتتالية برز بعدها المجتمع الأوربي كما هو اليوم، أي مجتمع صناعي رأسمال وليبرالي<sup>(2)</sup>. زيادة على ذلك إن تلك الاكتشافات العلمية وُظفت كلها في خدمة المجتمع وتحقيق رفاهيته، علم الاقتصاد لحل المشكلة الاقتصادية وعلوم الطبيعة والحياة (البيولوجية) للقضاء على الأمراض المنتشرة آنذاك وذلك بتشخيصها واكتشاف الأدوية المناسبة لها. وحسب إميل دوركايم (E. Durkheim) فإن الشعور بضرورة دراسة المجتمع يرجع إلى طابعه غير السوي وإلى الفوضى السائدة فيه، وبالفعل فإن المرحلة التي ظهر فيها علم الاجتماع إلى الوجود تتميز بأزمة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، فهي قد عاشت أكبر تحول في تاريخ الإنسانية<sup>(3)</sup>. وقد جاء علم الاجتماع لأجل إخراج المجتمع الأوربي من أزماته وإيجاد الصفات العلاجية لأمرضه المزمنة الناتجة عن الثورة الصناعية وتبعاتها، وبذلك - وفي الوقت نفسه - يجد لنفسه مكاناً بين العلوم الحديثة، التي قسمت حسب أوغست كونت A.Compte إلى علوم تجريبية وعلوم إنسانية، وقد صنف علم الاجتماع مع هاته الأخيرة في آخر الترتيب. وإذا كانت تقاس دقة أي علم آنذاك بمدى استعماله للغة الرياضيات فإن مدى علمية أي علم وصحة نتائجه كانت تقاس بمدى خدمته للمجتمع الأوربي في ذلك الوقت والإنسانية جمعاء، وفي هذا الصدد قال إميل دوركايم E. Durkheim، في نهاية القرن التاسع عشر: "إن السوسولوجيا لن تستحق ساعة واحدة من العناء إن لم تكن لها فائدة عملية"<sup>(4)</sup>. ومن هنا فإن السوسولوجيا لا بد أن تكون عملية إذا أرادت أن تكون علمية.

إذا، من خلال ما سبق نستنتج أن علم الاجتماع نشأ نتيجة ظروف اجتماعية واقتصادية، وإن شئت تدقيقاً جاء لتحقيق حاجات ورغبات كان المجتمع الأوربي في أشد الحاجة إليها، وتراكمات علمية أدت إلى ولادته، وإن كانت هذه الولادة مستعصية وقيصرية، فهل هذه الظروف هي نفسها التي عرفها المجتمع العربي؟.

## 2-ظروف انتقاله ونشأته في العالم العربي:

إن ظروف نشأة علم الاجتماع في الغرب بالطبع هي ليست نفسها ظروف ولادته في البلاد العربية، فالعالم العربي مشرقه ومغربه لم يعرف الثورة الصناعية أو التكنولوجية ولا تراكمية علمية أفضت إلى ثورة تكنولوجية مثلما حدث في الغرب، ولن أكن مبالغاً في القول إذا قلت حتى اليوم - وبعد مرور قرنين من اتصاله بالغرب وتعرفه على منجزاته الحديثة- لم يستطع أن يستوعب منجزاته التقنية، ويواكب تقدمه الحضاري، وإذا كان السؤال المحير الذي طرحه شكيب أرسلان في نهاية القرن التاسع عشر "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟"، فإنه لم يلق الإجابة عليه حتى اليوم. والحقيقة أن العالم العربي- مشرقه ومغربه- قد تعرف على الحضارة الغربية ومنجزاتها مبكراً مع الاستعمار منذ منتصف القرن التاسع عشر، ذلك الحدث التاريخي الذي يمكن أن يُنظر إليه من جهة أخرى بأنه احتكاك حضاري تم بين الغرب الصناعي والشرق الزراعي، وبذلك أطلع على الكثير من علومه كما أسلفنا الذكر ومنها علم الاجتماع. وطبيعياً أن يتأثر العالم العربي بثقافة الاستعمار سواء الانجليزي منه أو الفرنسي أو غيره، بعد أن كان خاضعاً له وتحت وصايته على ما يربو قرن من الزمان أو أكثر تقريباً حسب كل بلد، فالثقافة العربية الحديثة في الإطار المكاني أو الإقليمي ارتبطت بثقافة المستعمر في مجالات عديدة، وهذا بدوره أثر في البيئة الاجتماعية للمجتمعات العربية. وفي هذا الإطار أيضاً يمكن النظر إلى الأقاليم العربية كمنطقة ثقافية تضم بداخلها قسمين كبيرين متميزين وكل قسم ارتبط بثقافة غربية، فالفكر الاجتماعي والمعرفة العلمية لدى دول المشرق العربي ترتبط إلى حد كبير بثقافة المستعمر الإنجليزي، في حين ارتبط مجتمع شمال أفريقيا بشكل كبير بثقافة المستعمر الفرنسي، وهذا الارتباط ساهم في التلاقح والتبادل الحضاري بين الثقافة المحلية وثقافة المستعمر"<sup>5</sup>.

واستمر الحال عليه إلى مرحلة الاستقلال، بحضور ثقافة المستعمر إلى جانب الثقافة المحلية، والتي تبنتها الدولة الجديدة في إطار تحديث المجتمع، وبالتالي ظهر مركب ثقافي يتصف بازدواجية التكبير واللغة والثقافة، أو مايسمى بالثنائية على كافة

المستويات والأصعدة وحتى النخب. كما تجلى ذلك في الخطط التنموية والمشاريع الكبرى المتعلقة بالتنمية لتلك المجتمعات، فالفكر السوسيولوجي في البلاد العربية ليس أحادي المنبع.

ومنه "يبدو أن هذا النمط الثقافي وما ترتب عنه من ممارسات سوسيولوجية يمثل استجابة لافتقار الثقافة المحلية إلى نظريات واضحة المعالم ومناهج علمية تمكن من حل المشكلات المتجذرة والتي تعاني منها المجتمعات العربية وتحقق طموحاتها، كل ذلك أدى إلى استيراد حلول جاهزة بتبني نظريات ومناهج من ثقافات أخرى طبقت في الغالب وبوسائل وتقنيات ثقافة المستعمر"<sup>6</sup>. وفي هذا السياق التاريخي وعلى المستوى الأيديولوجي، بقيت السوسيولوجية في البلدان العربية- على قلتها- رهينة التوجهات التنموية والأيديولوجية للدولة الوطنية والمرتبطة أما بالتوجه الاشتراكي أو الرأسمالي، توجهات نتج عنها نوعين اثنين من علم الاجتماع: علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي ولكل نوع منهما منطلقاته الفكرية والإيديولوجية، فالأول كان هدفه الحفاظ على النظام القائم مع محاولة خلق ميكانيزمات التوازن في هذا النظام، أما الاتجاه الثاني والذي يعتبر مضاد للأول وهو علم الاجتماع الاشتراكي الغرض منه حل المشكلة الاجتماعية بطريقة راديكالية، بمعنى تغيير المجتمع الرأسمالي وتحويله إلى مجتمع اشتراكي لحل مشكلة التناقض الرئيسي بين رأس المال والعمل<sup>(7)</sup>. وقد ساد علم الاجتماع الاشتراكي في معظم البلدان العربية كون ذلك صاحب عملية التحرر من الاستعمار، حيث أتبعته العديد منها التوجه الاشتراكي وذلك استكمالاً للتحرر الذي ترى في اختياره نهجاً مخالفاً للاستعمار، لأن معظم الدول الاستعمارية كانت ذات توجه رأسمالي، وذلك ما سمي بالمرحلة المضادة كقفيض لمرحلة الاستعمار.

ومن بين علماء الاجتماع العرب الذين تبنوا منطلقاته الفكرية، هشام شرابي في دراسته المجتمع العربي، حيث تبني النظرية الجدلية الماركسية في تحليل البحوث الاجتماعية، ومنهم من حاول تفسير الفكر العربي تفسيراً مادياً تاريخياً (محمود أمين)، وسمير نعيم، ومنهم من حاول دراسة التراث دراسة مادية تاريخية مثل حسن مروة،

ومنهم من طبق الماركسية كمنطق ضمني في أبحاث اجتماعية جديدة وجدية حول ماضينا وحاضرنا، مثل عبد الله العروي<sup>(8)</sup>.

### 3- علم الاجتماع في الوطن العربي من الوثبة إلى النكبة

3-1 البدايات وتكوّن الرعيّل الأول: قلنا سابقا إن العالم العربي تعرف على منتجات الثقافة الغربية ومجالاتها العلمية مبكرا ومنها علم الاجتماع، كان ذلك في الجامعات الغربية، ففي عام 1913 ناقش منصور فهمي أطروحة الدكتوراه حول وضعية المرأة في الإسلام تحت إشراف الدروكايي لفي بريل (Lucien Lévy-Bruhl) (1857-1939) وفي عام 1918 ناقش طه حسين أطروحة الدكتوراه الجامعة حول " الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون" وكان قد أعدها تحت إشراف اميل دوركايم (E. Durkheim) نفسه<sup>(9)</sup>، مؤسس المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع وناقشها سنة 1918 بعد وفاة هذا الأخير سنة 1917، تحت إشراف تلميذه silicetain B سليلستان بوقلي (1870-1940). يقول الباحث جمال الدين غريد، لهذين الحداث دلالتين اثنتين:

الأولى أن العالم العربي تعرف على السوسيولوجيا في فترة مبكرة، ففي الوقت الذي كان فيه منصور فهمي وطه حسين يعدان أطروحاتهما كان الآباء المؤسسون لعلم الاجتماع جميعا على قيد الحياة، بل كانوا في أوج عطائهم العلمي. ففي هذه الفترة كانوا قد نشروا أو بصدد نشر أمهات أعمالهم المميزة، فدوركايم كان قد نشر مؤلفه "الأشكال الأولية للحياة الدينية" سنة 1912، وفالفريد باريتو f.Barito عمله المركزي "المدخل لعلم الاجتماع" سنة 1916، أما فيير (M. Weber) الذي شرع في تحرير كتابه الأساسي "الاقتصاد والمجتمع" سنة 1909، ثم توفي 1920، قبل صدوره الذي لم يتم إلا سنة 1922.

الثانية إن التعرف بالسوسيولوجيا كان في الوقت ذاته تعرفا بابن خلدون، الذي يرجع له الفضل في اكتشافه إلى أوربا ورده إلى أهله وثقافته<sup>(10)</sup>.

نستنتج إذا من هذين الحداث نتائج كثيرة، تعرف العرب إذا مبكرا على السوسيولوجية الدروكايية، وتعرفوا عليها بصفة مباشرة، فتكون جلمهم في الجامعة الفرنسية على

أيدي المؤسسين الأوائل لعلم الاجتماع من الدوركايميين، أعدوا الأطروحات تحت إشرافهم وترجموا بعض أعمالهم، وأسسوا فرعا لتدريس السوسولوجيا في الجامعة المصرية وذلك منذ سنة 1925، فكانت الهيمنة الدوركايمية تكاد تكون مطلقة على الرعيل الأول من السوسولوجيين العرب وخصوصا المصريين منهم، وهكذا فقد أشرف **لفي بريل (Lévy-Bruhl)** على أطروحة **منصور فهمي** أول متحصل على دكتوراه دولة في علم الاجتماع، وأشرف **فوكوني voconi** على عمل **عبد الواحد وافي** أول أستاذ كرسي في علم الاجتماع وعلى دبلوم **علي عبد الواحد عبد العزيز** عزت حول موضوع: "علم الاجتماع عند ابن خلدون ودوركايم" سنة 1937، وأشرف **علي عبد الواحد وافي**، والذي يعتبر نفسه دوركايميا على أول دكتوراه مصرية في علم الاجتماع أعدها **مصطفى الخشاب** سنة 1949، وفي سنة 1950 نقل **محمود قاسم** إلى العربية كتاب "قواعد المنهج في علم الاجتماع لدوركايم" (11).

ولم يقتصر التكوين المصري على المدرسة الفرنسية الدوركايمية بل تعداه إلى المدرسة البريطانية والأمريكية، وخصوصا في الأنثروبولوجيا وفروعها الحديثة، مثلما هو الحال مع **أب الأنثروبولوجيا العربية أحمد مصطفى أبو زيد** الذي درس عند **إيفانز بريشارد (Evans-Pritchard)** في الجامعة البريطانية. ولهذا الحدث لا يقل شأن عن الحدثين السابقين الذكر من ناحية الأهمية، فقد تعرف العرب على الأنثروبولوجيا في مراحلها الأولى من التشكل، أي في الوقت الذي بدأت تشق فيها طريقها العلمي، إذ كان العلماء العرب يتكفون على أيدي مؤسسي ذلك العلم الجديد، يتقدمهم العالم الأنثروبولوجي المشهور، الدكتور **أحمد مصطفى أبو زيد** (ولد 3 مايو 1921) هو أحد رواد علماء "الأنثروبولوجيا" العرب، والذي لُقّب بـ"شيخ الأنثروبولوجيين العرب"، كان قد تلقى تعليمه بجامعة الإسكندرية وأوكسفورد، **أحمد مصطفى أبو زيد** - درس عند **إيفانز بريشارد (Evans-Pritchard)** - حصل على ليسانس في الآداب (فلسفة وعلم الاجتماع) من جامعة الإسكندرية 1944، ثم على درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا من جامعة أكسفورد 1956، وهو الفائز بجائزة النيل للعلوم الاجتماعية لعام 2011، وخبير سابق في مكتب العمل الدولي بالأمم المتحدة، وأستاذ زائر في



عدد من الجامعات العربية والدولية، ومستشار سابق لمجلة "عالم الفكر" الكويتية، ومقرر لجنة الدراسات الاجتماعية في المجلس الأعلى للثقافة في مصر. عمل أستاذاً للأنثروبولوجيا وخبيراً بمكتب العمل الدولي بجنيف، أثرى المكتبة العربية بعشرات المقالات الموزعة في الدوريات، من مؤلفاته كتاب "المفهومات" وكتاب "الأنساق" و"المعرفة وصناعة المستقبل". عمل أستاذاً أنثروبولوجياً متفرغ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية إلى وفاته سنة 2013 .

وفي العراق نجد علي الوردی<sup>(12)</sup> والذي يعتبر من أوائل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا في العالم العربي، فبعد أن أكمل دراسته الثانوية وتحصل على درجة البكالوريوس سنة 1936، أرسلته الحكومة العراقية للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت وحصل على درجة الماجستير عام 1943، وفي عام 1948 أرسلته الحكومة العراقية ثانية لاستكمال دراسته العليا في تكساس الأمريكية وحصل على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع سنة 1950، وعاد إلى العراق سنة 1952 وعُين في قسم علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة بغداد، وقد كتب الوردی خلال عمله بالجامعة وفي مرحلة النقاعد ثمانية عشر كتاباً ومئات البحوث والمقالات. وقد اتسمت كتبه ومقالاته التي صدرت بعد ثورة 14 تموز/يوليو 1958 في العراق، وفي مقدمتها: "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي (1956)"، "ومنطق أبن خلدون (القاهرة 1962)"، و"لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث"، وقد صدر الكتاب في ثمانية أجزاء ما بين سنتي (1969-1979)<sup>(13)</sup>.

ولم يقتصر انتقال علم الاجتماع الى العرب عن طريق الدراسة والتكوين المباشر على أيدي المؤسسين لهذا العلم الجديد، بل استقدمت بعض الجامعات العربية لثلة من أولئك العلماء المؤسسين لفتح فروع لعلم الاجتماع بتلك الجامعات والتدريس فيها أمثال راد كليف براون R. Braoin، وايفانزبريتشارد Evans-Pritchard.

**2-2 المسيرة وتكوّن الرعيّل الثاني:** أما الرعيّل الثاني فمنهم من تكوّن في الجامعات العربية، ومنهم من تكوّن في الجامعات الغربية، ولهم صيت مشرقاً ومغرباً أمثال

سعد الدين إبراهيم، وحليم بركات(المجتمع العربي: بحث اجتماعي استطلاعي)، محمد الجوهري وغيرهم.

أما حالة المغرب العربي فلم يتعرف على السوسولوجيا مبكرا مثله مثل المشرق العربي بالرغم من تشابهه في الطريقة، وهو الاستعمار، وبالتالي لم يعرف رعييلين من السوسولوجيين مثلما هو الحال عليه في المشرق، رعييل تكون في الجامعات الغربية ورعييل ثاني بعده في الجامعات المحلية، فلم يظهر في بلدان المغرب العربي إلا الرعييل الثاني. ففي الجزائر مثلا، نجد أن السوسولوجيا كممارسة جزائرية لم تأت إلا في مرحلة جد متأخرة، صحيح أن الفرنسيين من ضباط وموظفين ورجال كنيسة قد قاموا منذ - بداية الاحتلال بدراسات كثيرة، وأكثر من ذلك ان السلطات الفرنسية كانت قد أمرت بأجراء بحث شامل، ربما على غرار ما جرى في مصر أثناء الحملة النابليونية، وبغض النظر عن مرامي هذه الأبحاث وأهدافها فهي تمثل اليوم رصيذا هاما من المعطيات والمعلومات التي لا غنى عنها لفهم حقبة حاسمة في تاريخ مجتمعنا.

ولم تنتقل السوسولوجيا للجزائريين إلا بعد عدة سنوات بعد الاستقلال، لما بدأت تتشكل الكوكبة الأولى من السوسولوجيين المغاربة، ويرجع غيابها أثناء الحقبة الاستعمارية إلى عدة أسباب أهمها الاستعمار نفسه، فلم يكن هذا العلم محل تدريس لافي المعاهد العليا التي تأسست سنة 1879 ولا في الجامعة التي برزت إلى الوجود سنة 1909، لتظهر كوكبة من السوسولوجيين الفرنسيين بالجزائر، أمثال بيير بورديو (P. Bourdieu)، وكلودينشولي (Claudine Chaulet)، وجزائريين مثل صياد عبد المالك وعبد القادر جغلول، ثم علي الكنز وجيلاي يابس ومحمد بوخبزة، نذير معروف، عدي الهواري، مصطفى بوشنتوفت، محفوظ بنون،... الخ.

وفي تونس بدأت أبحاث فرنسية ثم تواصلت أبحاث محلية، مثل دراسة فالونسي (Lucette Valensi) حول الأقليات المشاغبة والأقليات الصامتة، أما الأبحاث المحلية فقد أشتهر كل من سالم لبيض ودراسته حول القبيلة، ومحمد الهادي الجويلي ودراسته حول الزعيم السياسي. أما في المغرب نجد عبد الكريم الخطيبي،

ومحمد عابد الجابري، وعبد الله العروي في نقده للانقسامية، وعبد الله الحمودي، الذي من أهم إنتاجاته العلمية: حكاية حج في مكة، (الضحية وأقنعتها بحث في الذبيحة والمسخرة بالمغرب)، زكية زوانات التي بحثت في مجال التصوف (مملكة الأولياء، ابن مشيش شيخ الشاذلية)، ورحال بوبريك الذي يبحث في المجال الديني، عبد الباقي الهرماسي، والمختار الهراس.

غير أن هذه المسيرة التطورية الطويلة للسوسيولوجية العربية تحمل بكل تأكيد كل السمات لحركة وصلت- في نهاية المطاف- إلى أبعاد آخر العلوم الاجتماعية عن نزعتها الأصلية، وفي حالة المجتمع الجزائري وشأنه في ذلك بدون شك شأن جميع المجتمعات العربية المغلوبة على أمرها أو المستعمرة سابقا، فإن حصيلة السوسيولوجيا تبدو أكثر وضوحا إذ يتعلق الأمر بسوسيولوجيا لم تتمكن أبدا من استرداد نزعتها النقدية... أي سوسيولوجيا لم تظهر قط إلى الوجود<sup>(14)</sup>. وبكلام آخر وأكثر وضوحا، سوسيولوجية مرتبكة إذا صح التعبير.

### 3- سوسيولوجية عربية مرتبكة، أو سوسيولوجية الارتباك:

بالرغم من هذه الدراسات والبحوث والتي كانت أقرب إلى صميم المجتمع العربي فإن حالة عدم الرضى لدى معظم السوسيولوجيين العرب على مجهوداتهم، فمنذ منتصف القرن الماضي بدأت تظهر في الساحة الفكرية العربية جملة من الطروحات النقدية للمسار العربي تبلور فشل الاتجاهات السائدة في تبين العلاقة الجدلية القائمة بين الفكر الاجتماعي والبنية الاجتماعية التي انتجته، وبالتالي صورة هذه الإشكالية في شكل غياب كلي لعلم اجتماع عربي، أو في انحياز علماء الاجتماع إلى النظريات الغربية التي انبثقت وتطورت وتشكلت في ظروف تاريخية واجتماعية مخالفة لظروفنا<sup>(15)</sup>.

من هنا بدأت تظهر محاولات فكرية واجتماعية تطالب بتجاوز مرحلة تقليد العلوم الاجتماعية الغربية والتخلص من مسلمات علم الاجتماع الغربي القائم على مواقف قيمية خاصة، وينطلق أصحاب هذا الاتجاه من التساؤلات التالية: هل إن علم الاجتماع من العلوم العالمية- عامة- تخص جميع المجتمعات البشرية المتقدمة منها

والغير المتقدمة؟، أم أن هناك علم الاجتماع ذو هوية عربية؟ وما هي إنجازات علم الاجتماع الغربي في المجتمعات العربية؟، وهل المفاهيم الرئيسية للنظرية الغربية كمفهوم الدولة والإرهاب<sup>(16)</sup>، تصلح للتطبيق على واقع مجتمعنا العربي؟. وتعالق الأصوات منادية بعلم اجتماع عربي، ومبررات ذلك تتركز في النقاط التالية:

أ- خصوصيات ومشكلات العالم العربي وقصور النظريات الغربية عن فهم واقعنا الاجتماعي لأن تلك النظريات التحليلية صنعت لعالم غير عالمنا ولا تحمل صلة لواقعنا الاجتماعي.

ب- إن علم الاجتماع الغربي أستلهم نظرياته من المواقف الاجتماعية والوقائع الاجتماعية للمجتمع الغربي فضلا عن الايديولوجية والمعرفة والإطار الفكري للعلاقات الاجتماعية السائدة، لذا كان من الأجدر الانطلاق من التراث العربي لاستلهم النظرية التي تبدأ منها أول الخطوات نحو علم اجتماع عربي.

ج- تستمد المفاهيم الاجتماعية من التراث الغربي وتختبر على واقعنا الاجتماعي في الماضي والحاضر.

ويبدو "أن صورة علم الاجتماع العربي مازالت تتصف بالضبابية وغير واضحة المعالم، بل إنها تتخذ أحيانا شكل الانفعال العاطفي الذي قد يؤدي إلى الانتحار أو الهاوية. من ثمة فالمفاهيم الغربية والنظريات العلمية لا تمثل كتلة معينة أو منطقة دون أخرى، بل تمثل الثقافة العالمية والتراث البشري، فلا يتحقق علم اجتماع عربي بالرفض الكامل والشامل والقطيعة الكلية مع الإنجازات العلمية والعالمية"<sup>17</sup>.

وقد انتظمت ملتقيات وندوات دولية لعلماء الاجتماع العرب وطنية ودولية، للوقوف وقفة تقييمية على طبيعة عملهم، "فهذه الوضعية المزرية لهي محل الانشغال الأول لعلماء الاجتماع العرب جميعهم، فلا تكاد تحصى الملتقيات التي يتدارس فيها هؤلاء العلماء ويتناقشون أسباب ما أصطلح على تسميته بالأزمة، إلا إذا أخذنا على سبيل المثال النصف الأول من الثمانينات حيث لاحظنا انتظام العديد من الملتقيات العربية بغرض تحليل هذه المسألة بداية من ملتقى القاهرة (26/28، فبراير 1983) المعنون بإشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، ثم ملتقى الكويت علم الاجتماع

وقضايا الإنسان العربي المعاصر، (الكويت 11/8 أبريل 1984)، ثم حول العلوم الاجتماعية اليوم، (وهران 26-28 ماي 1984)، وبعده مؤتمر "تحو علم اجتماع عربي"، (تونس 25-28 يناير 1985)<sup>18</sup>. ثم ملتقى وهران ثانية، يوم الرابع والخامس والسادس من شهر ماي 2002، وقد عقدت كل هذه الملتقيات والمحافل العلمية، بغرض السماح لعلماء الاجتماع العرب بمعالجة محددات وتداعيات وضعية علمهم. وفي الواقع لم يفعل هؤلاء العلماء شيئاً آخر سوى محاولة الارتباط مجدداً بالتقليد السوسولوجي الأول الذي كان من صنع المؤسسين أنفسهم (دروكايم، فيبر، باريتو) أي بممارسة السوسولوجيا كعلم نقدي لذاته<sup>(19)</sup>. وما كثرة هذه الملتقيات إلا دليل على الأزمة التي يعيشها علمهم، يشبهه (علم الاجتماع العربي) عالم الاجتماع الجزائري **جمال الدين غريد** بالشخص المصاب بمرض غريب استعصى تشخيصه، وذلك بقوله: "وقد وقف علماء الاجتماع العرب مطولاً على سرير المصاب بمرض نادر استعصى تشخيصه واستلزم التشاور المكثف حوله، وهكذا فقد تعددت التشخيصات وتنوعت، فمنهم من يرد الأسباب إلى الخارج (الهيمنة الامبريالية) ومنهم من يعزوها إلى الداخل (التخلف الأنظمة التسلطية واللاميمقراطية) ومنهم من يعزوها إلى علماء الاجتماع أنفسهم (مواقفهم من الطبقة البعيدة عن هموم واهتمامات الجماهير الشعبية)<sup>20</sup>. وإلى جانب هذا النقد الذاتي الموجه لعلماء الاجتماع ببعضهم "فهو يرى تارة أن علماء الاجتماع العرب في معظمهم مصابون بالازدواجية والاستلاب، فهم يهتمون بالفكر الغربي أكثر مما يهتمون بمجتمعاتهم، فهم يعيشون بأجسامهم في الشرق ويعقولهم في الغرب، ويضيف البعض بأن السبب يكمن أيضاً في الابتعاد عن الإسلام ومقوماته الثقافية والاجتماعية، وهو يرى تارة أخرى أنهم مصابون بكسل مزمن فيكتفون باستيراد الأفكار السوسولوجية الجاهزة عوض بذل الجهود تلو الجهود للتصدي العلمي الرزين لمجتمعاتهم قصد إنتاج معارف مقنعة حولها."<sup>21</sup>

لكن وبالرغم من ذلك، فلا زالت هناك مجهودات بحثية لعلماء اجتماع عربي نابع من صميم المجتمع العربي، ولم تقتصر على الإبداع في الجانب النظري، بل تجاوز ذلك إلى محاولات جادة لاستلهاًم تقنيات البحث الميداني من المدرسة البريطانية<sup>22</sup>. غير

أن تباينها كان أكثر من توافقها مما يجعلها مشتتة وغير مؤثرة، فمنه من حاول إعادة تفسير التراث باستعمال أدوات معرفية حديثة، على سبيل المثال: محمد عابد الجابري ومحمد أركون، وحسن حنفي، ونصر حامد أبو زيد، وفهمي جدعان. ومنهم من حاول تطبيق المنهج المادي للتاريخ، أو أفكار النزعة التاريخية، مثل عبد الله العروي وسمير أمين، وحسن مروة، ومنهم من أستلهم المناهج الحديثة في العلوم الاجتماعية في فهم التراث مثل علي الوردي، وهشام شرابي وسعد الدين إبراهيم، ومحمد جابر الأنصاري. ثم إن أولئك الباحثين الاجتماعيين العرب ودراستهم، بالرغم من التراكمات البحثية لديهم، لم يشكلوا مدرسة خاصة بهم ونابعة من صميم المجتمع العربي، أو نظري أو اتجاه بحثي يكون مرجعا وسند يعول عليه في كل بحث اجتماعي مستقبلي في المجتمع العربي. فهل هذا يرجع الى علماء الاجتماع أنفسهم، أم إلى زبائنهم (الدولة والمجتمع)، الذين لا يأخذون بعلمهم ولا يطلب رأيهم بالرغم من المشاكل التي يتخبط فيها المجتمع، ولعلنا نجد الإجابة في سؤال سعد الدين إبراهيم (عالم اجتماع مصري معاصر): "ماذا يحدث للمجتمع العربي إذ اختفى علماء الاجتماع فجأة من العالم العربي؟"، ثم يجيب هو بنفسه "بالطبع لا يحدث شيئا للمجتمع العربي لا بالسلب ولا بالإيجاب، إذا اختفى علماء الاجتماع فجأة من العالم العربي". وهنا يصدق قول المرحوم جمال الدين غريد "أن السوسيولوجيا كانت في البدء وما زالت في المجتمعات الغربية كالمسكة في الماء، أما في ماسواها فهي عبارة استيراد وأقلمة أو وزرع" ويبقى لكل مجتهد مصاب.

**الهوامش:**

1. جمال الدين غريد، عالم الاجتماع والأنثروبولوجية جامعة وهران، لديه ما يقارب 45 سنة تدريس في الجامعة الجزائرية، ومؤلفات عديدة، توفي رحمة الله عليه، يوم 24 أوت 2013 بوهران.

2. جمال الدين غريد، الزرع الإشكالي للسوسيولوجية في العالم العربي حالنا مصر والجزائر، وقائع ملتقى علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2004، ص الجزائر، المرجع السابق، ص70.
3. HOBBSAWAM E., 1ère des révolutions, paris, Fayard, 1969.p.10.
4. –Selon M. Mauss, Essais de sociologie, Ed. de Minuit, 1968 et 1969, Paris, p.68.<sup>4</sup>
5. سيف الإسلام شوية، السوسيولوجية في المجتمعات العربية المعاصرة بين الطروحات الغربية ومحاولات تشكيل خصوصية فكرية واجتماعية، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقعج، دار القصبه، الجزائر 2004، ص47.
6. سيف الإسلام شوية، نفسه، ص46.
7. نفسه، ص47.
8. نفسه، ص48.
9. يكتب طه حسين في مذكراته أنه هو الذي بادر بالاتصال بدوركايم بعد إن سمع دروسه في علم الاجتماع" وشغف به أي شغف" ويذكر أيضا أنه وقبل مناقشة الدكتوراه أختار موضوعين اثنين أحدهما علم الاجتماع كما يتصوره أوغيست كونت، مذكرات طه حسين، بيروت، دار الآداب، بدون تاريخ، ص193،، نقلا عن جمال الدين غريد المرجع السابق، ص68.
10. جمال الدين غريد، إشكالية الزرع السوسيولوجي في المجتمع العربي، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، المرجع السابق، ص69.
11. نفسه، ص69.
12. وُلد علي الوردي في الكاظمية في العراق، في أسرة فقيرة ولكنها مرموقة في مجال العلم والأدب والشعر والتجارة، بدأ تعليمه الابتدائية ببلدته، ثم واصل تعليمه الثانوي الى ان تحصل على درجة البكالوريوس سنة 1936، وقبل ذلك

- بسنة (1935)، بدأ بكتابة مقالاته الأدبية في بعض الصحف والمجلات البغدادية.
13. علي الوردي "سيرورة حياة"، مجلة أضافات، العدد السادس عشر، 2011، ص 12.13.
14. لقع عبد القادر، تعريب جمال الدين غريد، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، مرجع سبق ذكره، ص 11.
15. سيف الإسلام شوية، السوسيولوجية في المجتمعات العربية المعاصرة بين الطروحات الغربية ومحاولات تشكيل خصوصية فكرية واجتماعية، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، المرجع السابق، ص 47.
16. مثلاً قام أيليا رزيق (باحث أمريكي من أصل عربي) بدراسة عن طبيعة الدولة في المجتمع العربي وهي دراسة تبين ان المقولات الغربية لا تنطبق على عالما العربي لأن الدولة في المجتمع العربي كان لها مواصفات مختلفة عن الدولة في المجتمع الغربي، انظر سهير لطفي وآخرون: إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، مجلة شؤون عربية، عدد، جامعة الدول العربية، تونس، 1982، ص 141.
17. سيف الإسلام شوية، المرجع السابق، ص 47.
18. جمال الدين غريد مرجع سبق ذكره، ص 77.
19. عبد القادر لقع، المرجع السابق، ص 10.
20. جمال الدين غريد، المرجع السابق، ص 77.
21. نفسه، ص 78.
22. نفسه، ص 51.